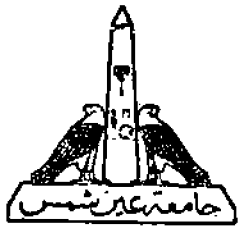

حولية كلية البنات
بجامعة عين شمس

العـــدد الحادى عشر

ا

مطبعة جامعة عين شمس
١٩٨٥

● الأستاذة الدكتورة فاطمة مظهر [رئيسة التحرير]

○ الدكتور يوسف حسن نوفل [المشرف على القسم الأدبي]

الفهـــرس

القسم العربى :

صفحة

جـابر بن حيان الصـوفى الكيميائى ... ... ١ ـ ١٥
ـ الدكتورة سعاد على عبد الرازق

اهمـال الصرف الصحى واثره على البيئة ... ... ١٧ ـ ٣٢
ـ الدكتورة هيام عبد الرحمن سليم

البيليوجرافيـــا الأدبيـة ... ... ٣٣ ـ ٥١
ـ الدكتور يوسف حسن نوفـل

العوامل الجغرافيـة المؤثرة فى توزيع المدن السعودية ... ٥٣ ـ ٩٢
ـ الأستاذ الدكتور محمود محمد عبد اللطيف عصفور

الدراسة الجغرافية لبعض مشكلات البيئة كاتجاه معاصر
فى الجغرافية التطبيقية ... ... ٩٣ ـ ١١٢
ـ الدكتورة عايدة نسيم بشـارة

تقويم منهج الرياضـيات بالقسم التربوى بكلية البنات ـ
جامعـة عين شمس ... ... ١١٣ ـ ١٧٩
ـ الأستاذة الدكتورة معصومة محمد كاظم

اقتصـاديات نقل الغاز الطبيعى والفحم فى مصر ... ... ١٨١ ـ ٢٠٨
ـ الدكتور سعيد احمد عبده

العلاقة بين القيم والحاجات والميول المهنية (دراسة عاملية) ٢٠٩ ـ ٢٤٤
ـ الدكتورة ناديه محمد عبد السلام

جابر بن حيان الصوفى الكيميائى

للدكتورة سعاد على عبد الرازق
مدرس الفلسفة الاسلامية والتصوف

يعتبر علم الكيمياء من أقدم العلوم التى عرفها البشر على الاطلاق ، فقد ازدهر لدى كهنة المصريين القدامى ولدى الكلدانيين والأشوريين والصابئة والقبالليين اليهود ، أى أن البشرية قد مارسته قبل ميلاد المسيح بزمن بعيد ، وكان له تاريخ طويل . ويذهب الأستاذ « هولميار Holmyard» — مؤرخ الكمياء المشهور إلى أن الأبحاث مازالت مستمرة فى الكشف عن أصوله ، وعن تاريخ الكيمائيين المختلفين لا فى بلاد الشرق الأوسط فقط بل فى جميع بلاد العالم المختلفة كأوروبا وأمريكا وآسيا وأفريقيا . . ويقرر هولميار أن ازدهار الكيمياء قد حدث منذ القرن الثامن الميلادى وحتى أواسط القرن السابع عشر .

وقد مارس الكيمياء كثير من الملوك والأباطرة والباباوات ورجال الكنيسة والصناع ، ومن هؤلاء روجر بيكون وألبير الكبير وتوما الأكوينى وتوماس براون وجون إيفلين وإسحاق نيوتن ، وغيرهم من المفتونين بالكيمياء .

أما من الملوك فقد كان للملك شارل الثانى معمل كيمائى خاص تحت المخدع الملكى ، يستطيع الوصول إليه بسلم خاص ليقضى وقتاً طويلا فى إبحاث كيمائية . . وكان من الملوك الكيمائيين هرقل الثانى ملك بيزنطه ، وجيمس ملك اسكتلندا والامبراطور رودولف الثانى .

وكان كثير من الكتاب والمؤلفين يفردون فصولا خاصة فى مؤلفاتهم ويشيرون إشارات متعددة الكيمياء ومن هؤلاء شكسبير وتشوسر الذى كتب إحدى حكاياته فى « حكايات كنتر بيرى » عن الكيمياء ، وكذلك كتب بن جونسون إحدى تمثلياته تحت عنوان « الكيمياء » وفيها دلالة على معرفته الواسعة بالكيمياء .

والكيمياء طبيعتان مزدوجتان : طبيعة خارجية ، وطبيعة داخلية — أما الكيمياء

الخارجية : فهى التى تعنى بمحاولات تكوين جوهر أو حجر الفلاسفة ، وذلك بتحويل المعادن المختلفة إلى ذهب وفضة ، وهو مايسمى (بالأكسير) . ولم تكن الغاية من هذا الأكسير هى الحصول على قوة تحويل معدن إلى آخر ، بل أيضاً محاولة التوصل إلى إطالة الحياة وجعلها أبدية خالدة . . وقد أدى الاعتقاد بأن الحصول على هذا إنما يتم بمدد إلهى وتوفيق ربانى فحسب ، قاد إلى ظهور النوع الثانى من الكيمياء ، وهى (الكيمياء الصوفية) . وقد تطورت هذه الكيمياء الداخلية أو الصوفية بالتدرج إلى مذهب فى التقوى ، عن طريقها يستطيع الصوفى الكيمائى تحويل النفوس الخاطئة (النفس الأمارة) إلى حالة من الطهارة والنقاء ، لتستكين النفس وتصفو (النفس المطمئنة) ويتم ذلك خلال الصلوات والأستسلام المطلق لإرادة الله (إسقاط التدبير) . . وقد اختلط هذان النوعان من الكيمياء بحيث نجد الكثير من الكتب الصوفية التى ألفت باسم (الكيمياء) لاتتكلم عن تحويل المعادن ، بقدر ماتستخدم مصطلحات الكيمياء الداخلية للتعبير عن الآراء الفلسفية واللاهوتية والعقائد الصوفية المختلفة[1] .

ومن هذا نرى أن الكيمياء قد نشأت وهى تحوى بجانب تجربتها العلمية ، عالماً من الأساطير والخرافات ، ثم خطت خطوة أخرى حين جذبت الكيمياء السحرة والكهان فاختلطت بالسحر ، ثم سمت إلى خلط تجاربها الأولى البدائية بالروحانيات والتوجه نحو هياكل النجوم والكواكب . ولذلك نرى علم الكيمياء وقد أزدهر لدى كهنة قدماء المصريين ، كذلك لدى الكلدانيين ، والأشوريين والصابئة والقباليين اليهود . . ومن أهم الأسماء التى أختلط فى تراثها الكيمياء بالروحانيات : هرمس ، أنماذمون ، وبولس ، وديمقريطس وأرجيلاوس ، وأسطفانوس . . . ألخ . ومن الملاحظ أن بعض هذه الأسماء اسطورية والبعض الآخر حقيقة[2] .

وقد انتقل هذا التراث بالكامل — سواء الأسطورى منه أو الحقيقى — إلى العالم الأسلامى ، وكان من أوضح الظواهر لدارسى تاريخ الكيمياء فى العصور الوسطى ،

---

(١) Ho lmyard : Alchemy, p. 13 — 14.

(٢) نفس المصدر السابق .

أن هؤلاء الذين عانوها كانوا من الزهاد والمتصوفة ، بحيث نسب إلى بعضهم صراحة أنهم كانوا صوفية . وسنرى هذا من خلال عرضنا لهذه الشخصيات الإسلامية من الكيمائيين وأصحاب الصنعة . ولم يكن كيميائيو المسلمين بدعاً فى هذا . فإننا نرى هـذا أيضاً فى العـالم المسيحى الوسيط فيما بعد ، بحيث شغـل مجموعة من آباء الكنيسة بالصنعة والسحر وعلوم الأوائل . وقد مارس ألبرت الكبير ، وتوما الأكوين الكيمياء وشغلوا بالصنعة ،أى تحويل المعادن المختلفة إلى ذهب وفضة . . وكانت قد وصلتهم مجموعة من الكتب العربية المختلفة فى هذه الموضوعات ، وذلك من خلال حركة ترجمة التراث العربى والإسلامى إلى اللاتينية وانتقاله إلى أوروبا . وكان (ليو الأفريقى) هو الذى نقل إليهم هذه المجموعة .

أما هذه المقالة فهى محاولة لإلقاء الضوء على شخصية من أهم الشخصيات الإسلامية التى اختلط فيها الكيمياء بالتصوف وهى شخصية (جابر بن حيان) .

(١)

اسطورة جابر بن حيان (سنة ١٦١ هـ)

من المعروف أن (جابر بن حيان)، هو أول كيمائى مسلم عانى « علوم الصنعة » ، واستطاع أن يترك فيها تراثاً علمياً وصل إلى أوروبا المسيحية خلال العصور الوسطى ، وأثر فى علم الكيمياء فيها أكبر تأثير . كما أثر فيها أيضاً بمنهجة التجريبى . ولكن مالبثت الأبحاث الأوروبية الحديثة أن تناولت جابر بن حيان وكيمياءه ، كما كما تناولت حقيقة مانسب إليه ، وأنتهى الأمر بهذه الأبحاث — وبخاصة بعد أن قام بول كراوس سنة ١٩٣٠ م بنشر الرسائل المنسوبة إلى جابر — إلى إنكار حقيقته التاريخية . . واعتباره أكذوبة من أكاذيب العصور الوسطى ، ومن هنا نشأت مايقال لها : أسطورة جابر بن حيان . وسنحاول أن نعطى بعض أمثلة من هذه الأبحاث ،والتى أدت كلها إلى إنكار وجوده . أو إنكار صحة الكثير من رسائله — على مابين هذه الأبحاث من تفاوت علمى أو حيدة منهجية .

أما الأستاذ « روسكا » فقد قام بدراسة الجانب الكيميائى فى أعمال الإمام جعفر الصادق العلمية ، وقد أنكر أن تكون الرسائل المنسوبة لجابر بن حيان قد صدرت عن جعفر الصادق أو عن عصره . فهو يرى أن العالم الأسلامى لم يعرف الكيمياء فى هذا العصر المبكر فى هذه الصورة الناضجة التى تصيغ وتسيطر على الأبحاث التى تركت لنا باسم « جابر بن حيان » . كما أنه من المستحيل خلال النقد الباطنى للنصوص ، أن تكون الرسائل بقلم واحد ، بل من المؤكد أنها عمل أفراد متعددين ومتباين التاريخ .

ثم جاء المستشرق المشهور « بول كراوس » — وقد كان لكراوس فضل نشر بعض مختارات من رسائل جابر بن حيان ثم قيامه بتحليلها — وأنتهى إلى نتيجة يراها هو مؤكدة : أن الرسائل ليست قطعاً لجابر بن حيان ، إن صح وجوده ، كما أنها أيضاً ليست من أعمال جعفر الصادق أو وحيه ، بل هى صادرة عن روح اسماعيلية ، متأخرة ، ويحددها بأواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع الهجرى .

أما الأستاذ « شميدر » فقد أنكر حقيقة جابر بن حيان الإسلامى ، وقد استند فى هذا إلى أن الكتابات الكيميائية التى تركها جابر بن حيان المزعوم ، إنما تحتوى معرفة وثيقة بالتراث اليونانى والكيميائى والفلسفى عامة . مما يدل على استحالة مسلم أو عربى عليها فى القرن الثالث الهجرى . ولهذا ذهب إلى فرض ارتآه من قبل « ليو الأفريقى سنة ١٥٢٦ — وهو من أكبر علماء الكيمياء الأفريقيين — وهو أن جابر يونانى اعتنق الإسلام وأجاد العربية وكتب بها فى « أشبيلية » ، وأسس بها مدرسة كانت لها فيما بعد شهرة كبيرة .

ثم يأتى الأستاذ « برتلو » ، وقد قسم المؤلفات المنسوبة إلى جابر بن حيان إلى قسمين : قسم عربى ترجم البعض منه إلى اللاتينية ، وهو مهوش مضطرب ملئ بالابتهالات ، وفيه المبدأ الغنوصى المشهور : أن لكل شىء ظاهر وباطن . الخ — ، وقسم لاتينى ، حقاً أن به بعض المصطلحات العربية الإسلامية ، ولكنه منظم غير مشوش وفيه منهج تجريبى واضح ، ويختلف تمام الاختلاف عن القسم الأول .

وينتهى « برتلو » إلى القول : أنه لابد وأن تكون الكتب الأخيرة اللاتينيه ذات المنهج العلمى التجريبى ، من عمل لاتينى عاش فى القرن الثالث عشر الميلادى ، وضع هذه الكتب ونحلها بهذا الأسم المشهور فى تاريخ الكيمياء وهو « جابر بن حيان » . ومن المحتمل كثيراً أن يكون الشق الأول من تحليل « برتلو » صحيحاً ، وهو أن القسم الأول من المؤلفات من عمل جابر بن حيان فى هذا العصر المبكر . ولكن الخطأ الواضح الذى وقع فيه برتلو أن الكتب ذات المنهج العلمى التجريبى المتكامل ليست كتباً ذات أصل عربى . وهذا هو الدليل على هذا الخطأ الحاسم :

(٢)
جابر بن حيان الحقيقى

لم يشك المحدثون من الباحثين الأوروبيين فقط فى وجود جابر بن حيان . فقد فعل هذا من قبل مجموعة من الباحثين الأقدمين من العرب . وقد عرض مؤرخ العلم القديم « أبن النديم » صاحب « الفهرست » للآراء المختلفة حول حقيقة الرجل فقال : « اختلف الناس فى أمره ، فقالت الشيعة أنه من كبارهم وأحد الأبواب . وزعموا أنه كان صاحب جعفر الصادق ، وكان من أهل الكوفة . وزعم قوم من الفلاسفة أنه كان منهم وأن له فى الفلسفة والمنطق مصنفات . وزعم أهل الصناعة والفضة أن الرياسة انتهت إليه فى عصره ، وأن أمره كان مكتوماً . وزعموا أنه كان يتنقل فى البلاد لا يستقر به بلد خوفاً من السلطان على نفسه . وقيل أنه كان فى جملة البرامكة ومنقطعاً إليهم ومتحققاً بجعفر بن يحيى . فمن زعم هذا قال : أنه عنى بسيده جعفر ، هو البرمكى . وقالت الشيعة أنه جعفر الصادق[1] » .

هذه هى الآراء المختلفة فى جابر بن حيان . وقد دعا التضارب فى حقيقة الرجل إلى أن جماعة من أهل العلم وأكابر الوراقين قالوا : أن هذا الرجل — يعنى جابر بن حيان — لاأصل له ولا حقيقة . وبعضهم قال : أنه ما صنف وما كان له حقيقة إلا كتاب « الرحمة » ، وأن هذه المصنفات صنفها الناس ونحلوها إياه[2] . ويذهب إلى هذا أيضاً « أبن نباته » فى « سرح العيون » وينكر حقيقة جابر بن حيان .

وفى الحقيقة أن إبن النديم عرض لنا الآراء المختلفة فى حقيقة الرجل . ولم يوافق أبداً « كبار الوراقين وأهل العلم » ، على إنكار حقيقة الرجل . كما سخر من فكرة إنتحال كتب فى موضوع وعر مستصعب كموضوع الصنعة ، ثم نسبتها إلى رجل آخر . . فيقول فى نص لطيف : « وأنا أقول أن رجلا فاضلا يجلس ويتعب فيصنف

---

(١) الفهرست لابن النديم ص ٤٩٩ .
(٢) نفس المصدر السابق .

كتاباً يحتوى على ألفى ورقة ، يتعب قريحته وفكره باخراجه ، ويتعب يده وجسمه بنسخه ، ثم ينحله لغيره : إما موجوداً ، وإما معدوماً ، ضرب من الجهل ، أن ذلك لايستمر على أحد ، ولايدخل تحته من تحلى ساعة واحدة بالعلم . وأى فائدة فى فى هذا . . وأى عائدة ؟ والرجل له حقيقة ، وأمره ظاهر وأشهر ، وتصنيفاته أعظم وأكثر[1] » . ولكن دفاع أبن النديم عن جابر بن حيان لم يغنى عن الرجل شيئاً ، فقد ارتبط اسم الرجل بالشيعة عامة ، وبجعفر الصادق خاصة ، كما هو واضح من بعض كتبه التى وصلت إلينا منسوبة إليه ، فإن هذه الكتب ترد فى صورة غنوصية تحمل معانى الظاهر والباطن ، ومتلقاه عن سيده جعفر صلوات الله عليه . والمسألة محيرة حقاً . إن كتب الشيعة إمامية أو اثنى عشرية أو إسماعيلية ، لاتذكر جابر بن حيان فى قوائم تلاميذ جعفر الصادق . وبالرغم من أن ابن خلكان ذكره ضمن تلامذة جعفر الصادق ، فإن الشيعة أهملوا ذكره ، بالرغم من أنهم نسبوا لجعفر الصادق كل العلوم الدينية والدنيوية ، بل نسبوا إليه الكيمياء نفسها ، وقد نسبوا له — كما هو معروف — كتاب « الجفر الأبيض » ، وسينسب معرفة الجفر لجابر بن حيان ، يقول « الخوانسارى » صاحب « روضات الجنات » وهو يؤرخ لجابر بن حيان : « جابر بن حيان الصوفى الطرسوسى ، كان من مشاهير قدماء العلماء بالأفانين الغريبة من الكيمياء والليمياء والهيمياء والديمياء ، وسائر علوم السر ، والجفر الجامع وأمثال ذلك[2] » . ولكنه يذكر بتأكيد : « أنه لم يظفر إلى الآن على ترجمة له بالخصوص فى شىء من فهارس رجال الشيعة » . ألا يدعو هـذا كله إلى القول بأن جابر بن حيان شخصية أسطورية ، أخترعت فى أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع ونسب لها كما قال « كراوس » ، تلك الكتب المختلفة فى الكمياء ، وأنها نشأت فى أوساط اسماعيلية سابقة أو معاصرة لظهور « رسائل أخوان الصفا » . ثم إن اضافة كلمة صوفى إليها تثبت تماماً أنها شخصية أسطورية ؟ ولكن لماذا لانحاول تتبع إسم « جابر بن حيان » فى شيعة أخرى سبقت ، كنظام غنوصى — كل فرق الشيعة الأخرى ، وأعطت مجالا لكل العناصر الدخيلة ، وهى « فرقة الأبى هاشمية » .

---

(١) الفهرست لابن النديم ص ٥٠٠ .

(٢) روضات الجنات للخوانسارى ص ١٥٧ .

هذه الفرقة الخطيرة التى ورثت الكيسانية فى الكوفة وواسط والمدائن ، وانتقلت إليها جميع التيارات الحضارية والغامضة فى هذه المنطقة ، والحضارات والثقافات المختلفة . تلقت الأبوهاشمية ثقافة الصابئة والكلدانيين والثانوية على اختلاف مذاهبهم : مانوية وديصانية ومزدكية ومانداثية ، ونحن نعلم أن أباهاشم بن محمد بن الحنفية ، ترك وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة وصية غنوصية خطيرة لمحمد بن عبد الله بن عباس ، ترك له فيها وثائق الدعوة ، وطلب منه أن يرسل فى عام ١٠٠هـ دعاته إلى خرسان لكى يبدأوا الدعوة الفعلية . وفى عام ١٠٠هـ أرسل محمد بن على بن عبدالله العباسى كبير دعاة أبى هاشم ، وهو « ميسرة أبو رباح البغال مولى الأزد » إلى العراق ، حيث اختار ثلاثة من الدعاة الأبى هاشميين لمقابلة الإمام العباسى فى الشام . يقول « الدينورى » فى الأخبار الطوال : « وفى ذلك العام — يقصد عام ١٠١ هـ — ٧٢٠ م — توافدت الشيعة على الأمام محمد بن عبد الله بن عباس بن المطلب بن هشام ، وكان مستقرة بأرض الشام ، بمكان يسمى « الحميمة » ، وكان أول من قدم من الشيعة ميسرة العبدى ، وأبو عكرمة السراج ، ومحمد بن خنيس ، وحيان العطار[1] . ثم توجه الثلاثة إلى خرسان . وكان الثلاثة أيضاً من موالى الأزد وهى القبيلة التى ينتمى إليها أيضاً أبوميسرة بالولاء . وهنا نجد الخيط الأول لحقيقة « جابر بن حيان الكوفى الأزدى » . فما لبث هؤلاء الثلاثة أن توجهوا إلى خرسان حيث بدأت الدعوة . يقول محمد اليعقوبى « وأرسل — أى الإمام محمد بن على العباسى — محمد بن خنيس وأبا عكرمة السراج وحيان العطار ، فلقوا من لقوابها وانصرفوا ، وقد غرسوا غرساً » . وعادوا مرة أخرى بل مرات إلى خرسان . ويبدو أن طرسوس كانت المدينة التى استقر فيها « حيان العطار » ، حيث ولد له هناك « جابر » وكان ذلك فى عام ١٠٢ هـ ، ولذلك لقب جابر أيضاً « بجابر بن حيان الخرسانى الطرسوسى[2] » .

ويبدو أن حيان العطار كان ضمن من قتلوا على يد « أسد بن عبد الله القسرى » حين قبض على الدعاة العباسيين ، وقد رأى استفحال أمر الدعوة ، فقد ذكر الدينورى ذلك فقال : « ثم حين تولى خالد بن عبدالله القسرى ، واستعمل خالد أسد بن

---

(١) الاخبار . . للدينورى ص ٣٣٢ .

(٢) روضات الجنات للخوانسارى ص ١٥٧ .

عبدالله على خرسان ، فانتهى خبر أبى عكرمة وحيان إلى أسد بن عبد الله ، فأمر بطلبهما ، فأخذا ، وأتى بهما ، فضربت أعناقهما وصلبا[1] ! .

وقد أخذ جابر يتعلم القرآن والنحو والقراءة والحساب فى بلاد العرب — والمقصود بها البادية — على شخصية ورد ذكرها تحت أسم « حربى الحميرى » . ولم يتكلم الباحثون عن حقيقة هذه الشخصية . . وإننى أضع هذا الإفتراض : أن « حربى الحميرى » هذا كان يمنياً من قبيلة حمير اليهودية ، وأن الكثيرين من هذه القبيلة اليهودية قد نزحوا من اليمن وقد حملوا معهم علوم الصنعة ، مختلطة بالكبالا اليهودية ، وعلوم السحر والطلسمات وعلم النجوم ، وكان من بينهم « كعب الأحبار » الذى كان له دور علمى غامض فى المدينة والشام فيما بعد . وإننى أرجح أن جابر بن حيان تعلم على يديه أيضاً علوم الصنعة المختلطة بهذه الغنوصيات التى تسود كتاباته . وبخاصة أن ابن النديم يذكره ضمن الفلاسفة الذين اشتغلوا بالصنعة[2] .

ثم عاد جابر إلى الكوفة لكى يزاول مهنة أبيه وهى العطارة ، ويبدو أنه اتصل بخالد بن يزيد بن معاوية ، وكان هو أيضاً معنياً بعلوم الصنعة .

وهنا نتساءل . هل بقى جابر بمعزل عن العباسيين ؟ إن نصا هاما يورده كل من الطبرى وابن الأثير يكشف عن صلاته بهم ، يقول النص : « وفى سنة ١٠٠هـ وجه محمد بن على بن عبد الله بن عباس من — أرض الشام — ميسرة إلى العراق ، ووجه محمد بن حنيس وأبا عكرمة السراج — وهو أبو محمد الصادق — وحيان العطار — خال إبراهيم بن سلمة — إلى خرسان ، وأمرهم بالدعاء إليه وإلى أهل بيته[3] » .

ولو تتبعنا تاريخ إبراهيم بن سلمة ، لوجدنا أنه كان من كبار الدعاة العباسيين . بل إن الإمام العباسى عرض عليه أن يكون أمير الشيعة فى خرسان ، ولكنه أبى تواضعاً[4] . ثم نراه مرة أخرى من بين كبار رجال الشيعة الذين بايعوا أبا عبد الله السفاح ، ووقف فى وجه الذين حاولوا إبعاده وأن يضعوا مكانه جعفر الصادق .

---

(١) الأخبار للدينورى ص ٣٤٤ .
(٢) الفهرست لابن النديم .
(٣) الطبرى حـ ٨ ص ١٢٥ .
(٤) الطبرى حـ ٨ ص ٣٤٨ .

فابراهيم بن سلمة إذن كان من المؤيدين الكبار للعباسيين . وبقى مخلصاً لهم ، فكان على العباسيين إذن أن يفسحوا له ولابن خاله جابر بن حيان مجال فى بلاطهم ، وبخاصة أن حيان والد جابر قتل فى سبيلهم . فلم تكن لأسرة جابر إذن علاقة مودة بجعفر الصادق ، بل على العكس كره أكبر رجالها جعفر الصادق ، وأخلص فى خدمة العباسيين . ووجد جابر بن حيان المكان الملائم له فى رحاب البرامكة فانقطع إلى جعفر البرمكى ، ونجد فى قائمة كتبه التى أوردها ابن النديم فى « الفهرست » الكتب الآتية : — كتاب إلى على بن اسحاق البرمكى ، وكتاب « أغراض الصنعة » . إلى جعفر بن يحيى البرمكى ، وكتاب « تليين الحجارة » إلى منصور بن أحمد البرمكى . وكان البرامكة معنيين بالصنعة ، ويذكر ابن النديم أن يحيى بن خالد بن برماك كان من رجالها . ويبدو أن الإسماعلية بعد ذلك زيفوا فيما تركه لنا الرجل من كتب ، فاستبدلوا اسم جعفر البرمكى باسم جعفر الصادق .

ويرى أبو هاشم الكوفى — وهو تلميذ غير زمنى لجابر بن حيان — أن جابرا أفضى بأسرار صناعته إلى هارون الرشيد ، وإلى يحيى البرمكى وابنيه الفضل وجعفر ، وأن ذلك كان سبباً فى غناهم وثروتهم . فلما ساورت الرشيد الشكوك فى البرامكة وعرف أن غرضهم هو نقل الخلافة إلى العلويين متسعينين على ذلك بمالهم وجاههم ، قتلهم عن آخرهم ، واضطر جابر بن حيان أن يهرب إلى الكوفة خوفاً على حياته ، حيث ظل مختبئاً حتى أيام المأمون ، فظهر بعد الإحتجاب ، ومن هذا يتبين لنا أنه كان من رجال البرامكة ، وأنه استتر مرة ثانية خلال نكبتهم ، كما كان مستتراً ومكتوماً وهو ينتقل مع أبيه خلال الدعوة للعباسيين .

وقد يقال أنه من المحتمل أنه تصل بجعفر الصادق مع اتصاله بالبرامكه . . وبخاصة أنه كان للبرامكة ميول علوية . وأن أكبر دعاة جعفر الصادق ، وهو هشام بن الحكم ، كان منقطعاً للبرامكة . . ولكن ينقض هذا أن كتب الشيعة الإمامية قد ذكرت هشام بن الحكم وأفردت له الصفحات الطوال ، بينما أهملت ذكر جابر بن حيان كتلميذ للصادق ، ولم يكن جابر بن حيان بأقل أهمية للشيعة من هشام ، فلو صح أنه كان من رجال الصادق ، لأرخوا له الكثير وكتبوا عنه .

وهنا يأتى السؤال الأخير فيما يخص حقيقة جابر بن حيان ، وهل كان جابر عربياً أم غير عربى ؟ إن أول رواية تتكلم عن أصله غير العربى هى رواية « ليو الأفريقى » ، وهى تذكر أن جابر بن حيان أغريقى يونانى اعتنق الإسلام وتعلم العربية وعاش فى أشبيلية فى القرن الثامن وأوائل القرن التاسع الميلاديين . وتهافت هذه الرواية واضح بلاشك . إن جابر بن حيان لم يكن مغربياً ، ولم يعش فى أسبانيا (إشبيلية) . إنما عاش فى المشرق وتنقل بين بلدانه . ويستنتج من هذا أن جابر بن حيان كان شرقياً وأنه كان كوفياً . ثم نأتى إلى الرواية التى تقرر أنه كان عربى الجنس ومن قبيلة الأزد . فهل كان جابر أزدياً حقاً ؟ أم أزدياً بالولاء ؟ إن ذكر أبيه تحت اسم « حيان العطار » يوحى بأنه كان من الموالى ، وكان من السهولة وببساطة أن يذكر « الطبرى » « وابن الأثير » أنه كان أزدياً ، ولكننا نعلم أن أصحاب الحرف كانوا — فى الأرجح — من الموالى ، ولذلك فإننى أميل إلى القول بأن حيان العطار لم يكن عربياً ، وإنما كان مولى للأزد ، والعطارة بالذات لم تكن ضمن صنعة العرب.

(٢)

جابر بن حيان والتصوف

لقد ذكر أسم جابر بن حيان منسوباً إلى التصوف ، فقيل جابر بن حيان الصوفى ، ولعل هذا أيضاً مما دعى إلى إنكار حقيقته ، فإن الباحثين يجمعون على أن كلمة التصوف لم تظهر فى عهد جابر بن حيان . وليس فى ذلك وجه غرابة على الإطلاق ، فإن غلاة الشيعة فى القرن الثانى الهجرى كانوا يظهرون التزهد وذلك بالتعبد ولبس الصوف ، وكان لباس الصوف فعلا فى مرحلة من المراحل رمزاً على امتلاك صاحبة لقوة روحانية يسيطر بها على المادة .

أى أن الزعيم الشيعى الغالى كان لابد له من معرفة بعلوم السحر والطلسمات — ، والقيام بالحيل لجذب الأتباع إلى مذهبه . وكانت هذه العلوم منتشرة لدى السوريان ولدى الكلدانيين ولدى القباليين من اليهود ، وقد أخذها عن هؤلاء الغلاة من الشيعة. وقد أورد لنا ابن خلدون فى مقدمته تاريخ ظهور هذه العلوم فقال : « ظهر بالمشرق جابر بن حيان — كبير السحرة فى هذه الملة — فتصفح كتب القوم ، واستخرج الصناعة ، وغاص فى زبدتها . واستخرجها ، ووضع فيها غيرها من التآليف وأكثر الكلام فيها ، وفى صناعة السيمياء لأنها من توابعها ، لأن إحالة الأجسام النوعية من صورة إلى أخرى إنما يكون بالقوة النفسية ، لا بالصناعة العملية ، فهو من قبيل السحر[1] » . وضح إذن أن السحرة إنما أرادوا هذه القوة النفسية ، التى تقلب كل شىء وتؤثر فى كل شىء ، وكان على الغالى الشيعى من ناحية ، وعلى المتصوف من ناحية أخرى أن يستخدمها الأول لتأييد عقائده الغالية ، والثانى لتأييد كراماته . وهذه القوة « إنما تخرج إلى الفعل بالرياضة ، ورياضة السحر كلها إنما تكون بالتوجه إلى الأفلاك والكواكب ، والعوالم العلوية والشياطين وذلك بأنواع التعظيم والعبادة والخضوع والتذلل[2] » .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٤٩٧ .
(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٤٩٨ .

ثم إن الكيمياء نفسها أو الصنعة — وقد نسبت إلى جابر بن حيان — كانت تستند على نفس القوة الروحية ، فلم تكن تكتفى بالتجارب العملية ، بل لابد لها من هذه القوة التى تتجه إلى الكواكب والأفلاك لكى تعاون التجربة على أن تتحقق ، فينقلب المعدن ذهباً أو فضة . وقد ساد مصطلح الكيمياء بعد ذلك فى كتب المتصوفة ، وأميز مثال على ذلك كتاب « كيمياء السعادة » للغزالى وهو فى التصوف ، كما أننا سنرى نفس هذا النسق لدى الكثير من المتصوفة فى القرنين الثالث والرابع الهجرى . يقول نيكلسون « ويظهر الربط بين العلوم الطبيعية والعلوم الدينية فى تاريخ التصوف الإسلامى فى القرون الوسطى . وفى هذا المضمار سبق جابر بن حيان — وتلميذ الصادق جعفر بن محمد — والمسمى بجابر بن حيان الصوفى ، وذو النون المصرى ، على كوزنيلوس أجريبا وبراسيليوس[1] » .

(١) دراسات فى تاريخ التصوف الاسلامى لنيكلسون ص ١٠ .

(٤)

المنهج التجريبى فى رسائل جابر بن حيان

كان السبب الرئيسى فى إنكار شخصية جابر بن حيان ووجوده التاريخى عند مجموعة الباحثين الأوربيين — كما سبق القول — مجموعة الرسائل التى نسبت إليه والتى كشف الباحثون عن وجود منهج تجريبى واضح بها . بل أن « كراوس » — وهو أعظم من بحثوا فى جابر بن حيان — ينكر وجوده ،لأن فى كيمياءه علما تجريبياً قائماً على نظرية فلسفية « ولايمكن أن يكون هذا العلم التجريبى قد أتضح فى عصر جابر . . » بل إن الباحثين ينسبون هذا العلم التجريبى إلى إضافات لاتينية فى كتب جابر . . .

ولكن قد سبق أن أوضحت فى هذا البحث أن جابر بن حيان شخصية حقيقية كما رأينا . وأنه أخذ علمه الكيميائى عن « حربى الحميرى » وأن هذه الشخصية الغريبة هى لشخص يهودى الأصل ، حمل معه علوم الصنعة ، فوصلت بما فيها من أسرار إلى جابر بن حيان بن العطار ، فطور فيها ماشاء له التطوير . وكان هناك منهج تجريبي إسلامى ، ينشأ فى الوسط الإسلامى ، ولاشك أن عناصر من هذا المنهج قد وصلت إلى جابر ، وحاول أن يقيم تجاربه عليها . ولاشك أن مجموعة من أعمال جابر بن حيان العلمية قد تطورت بعده ، وأضيفت إليها إضافات كثيرة ، وأخذ المنهج الإسلامى الإستقرائى يدخل فيها ويحل محل الأسرار القديمة ، لينتج علماً تجريبياً خالصاً . فما أن وافى القرن الرابع الهجرى ، حتى كان المنهج الإسلامى الأستقرائى قد اكتمل ، ودخل هذا المنهج بالتالى فى كتابات جابر بن حيان بواسطة الكيميائيين اللاحقين . . وخاصة أن الأبحاث العلمية الحديثة فى مناهج البحث قد أثبتت تكون هذا المنهج الإستقرائى الإسلامى ، وبينت كيف سبق المسلمون الأوربيين المحدثين فى اكتشافه بقرون[1] طوال . وفى هذا الضوء تكون قد حلت مشكلة المنهج فى كتابات جابر بن حيان .

(١) كتاب مناهج البحث عند مفكرى الاسلام للدكتور على النشار .

إن الفكرة الرئيسية التى تظهر فى المباحث المنسوبة لجابر بن حيان هى استحالة المعادن ، أى تحول ماهية معدن إلى ماهية معدن آخر ، وهذا يعنى تحول طبيعة من الطبائع إلى غيرها — والمنطق القديم ينكر هذا — ثم يمضى المنهج المنسوب إلى جابر فيقرر أننا لا نصل إلى معرفة الماهية أى معرفة الكيف ، أننا نصل فقط إلى وزن الطبائع أى معرفة الكم . أما كيف نعرف الكيف ،فبواسطة « التجربة » . وهو هنا يصرح بلفظ « التجربة » ثم يمضى فيقول : « ان طريق التوصل إلى الحقائق ليس هو القياس الارسطاليسى ،وإنما بواسطة « قياس الغائب على الشاهد الإسلامى» .

ويقرر أن تعلق شئ بآخر إنما يكون بالشاهد على الغائب على ثلاثة أوجه :

(أ) المجانسة . (ب) مجرى العادة . (جـ) الآثار .

لست أود أن أخوض بالتفصيل فى هذا المنهج ، ولكنه بلاشك منهج إسلامى أصيل ، وقد كان المنهج التجريبى الاستقرائى[1] ، هو أساس الحضارة الإسلامية ، لم تعرفه أوروبا أبداً إلا عن طريق المسلمين ، وبخاصة كتب جابر بن حيان ، والحسن بن الهيثم ، وغيرهما من علماء المسلمين .

وأرجو أن أكون قد قدمت فى هذا البحث ما أثبت به حقيقة عالم مسلم هو جابر ابن حيان كيمائياً وصوفياً وكذلك أثبت أن المنهج التجريبى الذى أنبثق من مجموعة الرسائل التى نسبت إليه ، إنما هو منهج إسلامى أصيل .

---

(١) توجد رسالة دكتوراه بعنوان « المنهج الاستقرائى فى الفكر الاسلامى » نوقشت بكلية دار العلوم — قدمها الدكتور عبد الزهرا بندار العراقى .